الفصل الأول

اللغة الشعرية

«يعرف شومسكي اللغة بأنها ملكة فطرية تكتسب بالحدس، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتكلم باللغة إلا إذا سمع صيغها الأولية في نشأته فإن سماع تلك الصيغ ليس هو الذي يخلق القدرة اللغوية في الإنسان وإنما هو يقدح شرارتها فحسب، وهذا ما يفسر الطابع الخلاق في الظاهرة اللغوية وكذلك طابعها اللا محدود»[1].

إن دراسة اللغة يفيد في تحديد القدرة اللغوية الخلاقة للشاعر والتي بها يفوق أقرانه.

فإذا عدنا إلى نظرية الجرجاني نجد أنها تقوم على أن الألفاظ «لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والتأليف»[2].

وبهذا الفهم لدور الألفاظ سبق الجرجاني نقاد عصرنا الحديث، «لم يضف ـ كما قال د. يوسف بكار ـ تشارلستون جديداً في حديثه الطويل عن الألفاظ، حين يرى أن السحر والفتنة فيها ليست من خصائصها منفردة، وإنه في المعجم جثث هوامد، وهياكل جامدة، ورموز لأفكار، فإذا سلكت في الكلام تصبح جزءاً حياً من مجرى الحياة، أو قطعة منها يكسوها اللحم، وتجري فيها الحياة،

---

(١) المسدي، د. عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، ص ٢١٠ـ٢١١.

(٢) الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص ٢.

وما لحمها ودماؤها إلا الصور والمشاعر التي تحركها في الأذهان، وتثيرها في القلوب»[1].

ورأى ابن طباطبا أن «للشعر أدوات يجب إعدادها قبل مرامه، وتكلُّف نظمه، منها: إيفاء كل معنى حظه من العبارات، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي، وأبهى صورة»[2].

وقد أكد هذا المعنى الدكتور عز الدين إسماعيل، فقال: «اللفظة المفردة لا جمال فيها ولا قبح، ولكن الجمال في علاقتها بغيرها. . وللفظة صورتان، صورة صوتية وهي ما للألفاظ من امتداد منسق في الزمان، وصورة مرئية مفهومة، وهي ما للفظ من دلالة على شيء»[3].

وللألفاظ عنده وظيفتان: «وظيفة إشارية دلالية، ووظيفة تعبيرية جمالية، وإذا كان واجب الألفاظ الإشارية الدلالية، توصيل الحقائق الصادقة الانطباق للمتلقي، وهي لغة العلم، فإن واجب الألفاظ الشعرية واجب انفعالي إيحائي، يخالف الواقع ولا يهتم بانطباق الحقائق عليه، لأن وظيفة الألفاظ تعبيرية جمالية»[4].

ولما كان الشعر الصوفي يركز على الوظيفة الدلالية لما يحتاج إليه من شفافية معينة تحول الكلمة إلى سر، والسر إلى كلمة، والكلمة إلى إشارة فقد «كان المتصوفة يستخدمون الرموز لأنها مقاليد الضمائر، ولوائح الأشائر وأسرار السرائر، فهي الوسيلة الوحيدة التي يسعهم فيها البوح الباطني في أعماق الضمائر الحية»[5].

وقد أشار ابن سبعين للمغزى الرمزي للألفاظ في قوله: «هذا كلام لا يسعني فيه الكلام، ويسعني فيه الرمز والإبهام فأنت تجد خبرك فقط لأنك أنت

---

(١) بكار، د. يوسف، بناء القصيدة، ص ١٣٢ـ١٣٣.
(٢) ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ٦.
(٣) إسماعيل، د. عز الدين، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص ١٧٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤١.
(٥) موسى باشا، د. عمر، قطب العصر عمر اليافي، ص ٤٨٥.

أنت بذلك، لا أنت خبرك بحسب هذا القياس، وحكمة هذا القياس، وإن كنت خبرك فأنت أنت، لكنك غير خبرك، فافهم بمفهومه وبمثله. .»[1].

أولاً ـ دلالة الألفاظ والتراكيب:

١ ـ السر الصوفي للحروف:

إن البحث في الألفاظ يقوم على استقراء الحروف وفك رموزها، فهناك الحروف النورانية التي لها رموزها المعينة، ومنها استخدم القرآن الكريم الرمز بالحروف في أوائل السور، ذات الدلالات المختلفة، فبعض الدارسين يرى أنها رمز لأسماء الله تعالى، وبعضهم الآخر رأى أنها ذُكرت بياناً لإعجاز القرآن[2]، وهناك من رأى أنها حروف استأثر الله بعلمها، وقد عرف ابن عربي الحرف في كتابه (اصطلاح الصوفية)، فقال: «الحرف: وهو ما يخاطبك به الحق من العبارات»[3].

أما (د. أسعد علي) فقد سمى حروف فواتح السور، بالحروف النورانية في كتابه (تفسير القرآن المرتب)[4]، مؤكداً على أسرار هذه الحروف، وإشاراتها الخفية.

وفي الواقع يبدأ الاستخدام الرمزي الصوفي للألفاظ في إطار المفهوم الرمزي للحرف، من هنا كان البدء بالنقطة وكان للنقطة سرها وجمالها، أي «لله فقط (النقطة) وسر الحروف، وسبب الخطوط وباطنها، وله نسبتها، وهو النسب الصحيح الذي يبلغ إلى السر، ويدل على الوتر، وشاهده الموجود في الغيب يشير إلى الوحدة به، وبرهانه في الشاهد يدل على أنيّة الجمع، في مواقف السمع، يقول: من لم يوتّر فليس منا. فـ(للنقطة) وجود مفرد تدل على أنيّة (أنا)، وأنتيّة (أنت) وهُـــويّة (هو وهذه سماء موجودة بعد وجودها، ورسوم بادية عنها حدودها، تفتقر إليها، وتسترها بالتصريف وتظهرها

---

(١) ابن سبعين، رسائل ابن سبعين، ص ٢٣٨ـ٢٣٩.

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير: ١/ ٣٨.

(٣) ابن عربي، اصطلاحات الصوفية، ص ١٣.

(٤) علي، د. أسعد، تفسير القرآن المرتب، ص ٢٥١.

بالتشريف، (النقطة) تشير إلى وحدة المحقق عند سلب الإرادة ونيل المراد، وحذف مسافة المواجد، والإشراق وقطع التقسيم والاشتياق»[1].

أما ابن خلدون فقد وجد أن علم أسرار الحروف، نشأ نتيجة الخوض في التصوف، فقال: «نشأ عن الخوض في علم المكاشفة عند أهل الرأي من الكمال الأسمائي، الذي كانت مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب، كما أن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء والأكوان من لدن الإبداع الأول لتنتقل من أطواره وتعرب عن أسراره، فحدث لذلك علم أسرار الحروف»[2].

وعقد ابن خلدون فصلاً في مقدمته حول علم أسرار الحروف، ربط فيه بين نشأة هذا العلم وظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس «وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر، وتدوين الكتب والاصطلاحات، ومزاعمهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه.. فحدث لذلك علم أسرار الحروف، والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الأكوان، ثم اختلفوا في سر التصرف الذي في الحروف»[3].

٢ ـ الألفاظ:

للألفاظ أهميتها البالغة فهي الركيزة الأساسية التي يقوم عليها الشعر ففي «الوقت الذي يهتم فيه الفيلسوف بالحقائق والأفكار فحسب، ويقف فيما وراء الألفاظ، يقف الشاعر فيما قبلها، لأنها ليست بالنسبة إليه علامات فحسب، بل هي كذلك ـ وقبل كل شيء ـ كائنات ينظر إليها، ويفحصها ويتأمل فيها، ويُعجب بها، كما يُعجب الإنسان بحصاةٍ أو بحشرة أو بطير ما»[4].

فالشاعر يرى «أن المفردة كائن حي ودلالة حيوية، تقوم بوظيفة نقل المشاعر في صيغ مغايرة للاستعمال المعهود، ولا تنتهي غايته عند صياغة

---

(١) ابن سبعين، رسائل ابن سبعين، ص ٢٣٩.
(٢) ابن خلدون، شفاء السائل، ص ٥٢.
(٣) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٣٩٨.
(٤) بريتلمي، جون، بحث في علم الجمال، ص ٢٨٦.

الفكرة فقط، بل عند بثّ الروح في حنايا الكلمات، فتغدو بدائل عنه، وهذه المعايشة بين المفردة والمبدع تحتاج إلى وقفة ذوقية لأجل عـملية الانتقاء؛ لأن الكلمة سترسم صاحبها بملامح جسدية، وملامح ذهنية في سجل خيالي»[1].

إذاً تنبع أهمية اللفظة، من الاختيار الصحيح لها، وتوظيفها توظيفاً فنياً بحيث تؤدي مدلولاتها المختلفة، والمعنى الذي تريد أن تصل إليه متجاوزة الشكل اللفظي إلى المضمون الجوهري المشار إليه.

أوضح (د. علي عبد الواحد وافي) تأثير الإسلام وأحاديث الرسول على اللغة فقال: «أما المفردات ودلالتها، فكان الأثر فيها واضحاً كل الوضوح فقد تجرد كثير من الألفاظ العربية من معانيها العامة القديمة وأصبحت تدل على معانٍ خاصة تتصل بالعبادات والشعائر.. من ذلك ألفاظ الصلاة والصوم والزكاة والحج»[2].

والحقيقة أن أهمية الألفاظ لا يمكن أن تظهر بصورة واضحة إلا عملياً من خلال دراسة الألفاظ ورموزها عند الشعراء المتصوفة.

أ ـ الرمز اللفظي:

ما دام للحروف أسرارها عند المتصوفة، فكانت ألفاظهم في بعث جديد، بعد التدقيق والاختيار، على نحو يحمل ما في النفس من أسرار الحب الإلهي، وقام بتصنيف هذه الألفاظ ابن عربي في كتابه الاصطلاحات الصوفية، مبيناً دلالاتها المختلفة، وإشاراتها الموحية، كما نجده يعتني باختيار اللفظ الدقيق، في ديوانه، من ذلك قوله[3]:

الوحي بالشرعِ قد سُدَّت مغالقه ... وليس ينكرُ ذا إلا الذي كفرا
لم يبقَ منه سوى ما الشخص يدركه ... في نومهِ أو بكشفٍ هكذا ظهرا
وليس يدركهُ من غيرِ صورتهِ ... إلا هُنا ولهذا حازَ من عَبَرا
علماً صحيحاً من الرحمن بَشَّرَهُ ... به المهيمنُ في رؤياه إن شَكَرا

(١) باسوف، أحمد، جماليات المفردة القرآنية، ص ٢٦.
(٢) وافي، د. علي عبد الواحد، فقه اللغة، ص ١١٩.
(٣) ديوان ابن عربي، ص ١٧٨.

فينـزلُ الشـيءَ فـي رؤيـاه منـزلـةً بـآيـة فهـي قـرآنٌ لمـن نظـرا
في جَمعها والذي تُوحيه من عِبَرٍ وحياً صحيحاً لنا به القضاءُ جَرى

إذا عدنا إلى هذه الأبيات، ونحن نعرف ما لابن عربي من تفنن في استخدام المصطلح، وجدنا هذا التدقيق في اختيار اللفظ، حتى جاء بهذا المزج الرقيق الذي لا يعرفه إلا من كان عارفاً لله مؤمناً بآياته وسوره، حتى يصبح في جمع هذه الألفاظ وما تحويه من عبر ودلالات وحياً جاء من عنده تعالى.

ولدى تتبع أشعار عائشة الباعونية، نلاحظ أنها تختار ألفاظها الشعرية من مجموعة لغوية خاصة تستقي منها ألفاظها ومفرداتها، من هنا كانت تكثر من استخدام ألفاظ الحب الإلهي، وفي الخمريات كانت توظف ألفاظها توظيفاً ثريّ الدلالة، متكئة على بعض الرموز القرآنية، مشيرة بذلك إلى تعدد ثقافتها، من ذلك قولها[1]:

غُذِّيتُ بها في عالمِ الذّرِّ وانتَشى على نشوتِي من شربِها طفلُ جُمْلَتِي
أنِفْتُ لها مني وأصبحتُ في الهَوى أغـارُ عليهـا أن تمـرَّ بفكـرتـي
سَقانِي حُميَّا الحبِّ من قبل نشأتِي ومن قبل وجدانِي طربتُ بِنَشوتِي
دَعَـانِـي هَـواهُ فـاستجبـتُ بِجمْلتـي إجـابـةَ مـن أفنـى بِبـاقِـي الهَـويـة

تتنوع في هذه الأبيات الدلالات ففي قولها: «غذيت بها في عالم الذرّ» رمزٌ استوحته من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[2].

وفي تفسير الجلالين: «إن الله أخرج من صلب آدم بعضهم نسلاً بعد نسل كنحو ما يتوالدون كالذر، وأشهدهم أنه الرب فاعترفوا بربوبيته»[3].

الشاعرة اعتمدت على دلالات عالم الذر؛ لتشير إلى تعلقها الشديد بالخمر الإلهية، وفي قولها: «غذيت» إشارة إلى هذا الغذاء القديم منذ طفولتها، وفي قولها: «طفل جملتي» إشارة إلى دفق حنان المرأة وإحساسها بعاطفة مقدسة

(١) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق١٤٢-١٤٤.
(٢) (الأعراف، ١٣٢).
(٣) تفسير الجلالين، تفسير الآية ١٣٢ من سورة الأعراف.

عندها هي عاطفة الأمومة، وفي قولها: «سقاني حميا الحب»، فالخمر تبدو هنا مجبولة بعبق الحب، وفي قولها: «أفنى بباقي الهوية» دلالة على الفناء الكلي في تلك الخمر.

ومما يلاحظ هنا التركيز في اقتباساتها على الموروث الديني «الذي هو أعظم مصدر للصور النفسية وأبسطها، وهو يخفي وراءه دائماً قوة عزيزة مهيبة، ترتفع فوق كل القوى البشرية وغير البشرية، إنها قوة الله»[1].

والحقيقة أن عائشة الباعونية اشتهرت في التدقيق في اللفظ واختياره الاختيار المناسب، من هنا أتحفتنا ببديعيتها التي حرصت فيها على إيراد جميع فنون البديع، ومطلعها[2]:

في حُسنِ مطلعِ أقمارٍ بذي سلَمِ
أصبحت في زمرةِ العُشَّاق كالعلم
أقولُ والدَّمعُ جارٍ جارحٌ مُقَلي
والجارُ جار بعذل فيه مُتَّهمي
يا للهَوى في الهَوى روحٌ سمحْتُ بها
ولم أجدْ روحَ بُشرى منهُمُ بهِم
وفي بُكائِي لحالٍ حالَ من عدم
لفقتُ صبراً فما أجْدَى لمنعِ دَمي

ففي هذه الأبيات نعود لنجد ألفاظاً قد اختيرت بدقة لترمز إلى الرسول ﷺ ففي قولها: «أقمار» تهل علينا أنوار القمر، إنه قمر الهداية المحمدي، الذي انبعث إلى أقصى الشرق وإلى أقصى الغرب، وهذا ما يتجلى لنا أيضاً في مدائحها للرسول ﷺ وفي اختيارها لألفاظ النور المحمدي والتبشير برسالته عليه الصلاة والسلام.

وأخيراً يتبيَّن لنا إدراك الصوفي سر الألفاظ الخفي، واختياره اللفظ رامزاً

---

(١) الرباعي، عبد القادر، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، ص ١٥٦.
(٢) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٨٥.

بذلك الاختيار إلى إيماءات نفسه، ودلالات عقله، مركزاً على اصطلاحات صوفية تشكل معجماً خاصاً به.

ب ـ أنواع الألفاظ:

١ ـ الألفاظ المقتبسة:

اقتبست الشاعرة ألفاظاً من القرآن نحو: «أسرى ليلاً»، و«قاب قوسين» ووظفتها توظيفاً جديداً في قولها[١]:

والله قد أسرى به في ليله ... قد فاق فيها نور بدر التمام
ودنا إلى أن صار مثل القاب من ... قوسين من ذي العز والإكرام

كما اقتبست أسماء سور قرآنية في وصف محامد الرسول ﷺ في قولها[٢]:

وراع لفظاً ووزناً في محامد من ... جاءت محامده في نون والقلم

واقتبست من لفظه الشريف الحوض في الحديث: «حوضي مسيرة شهر»[٣].

في قولها[٤]:

وله اللوا والحوض أعظم آية ... وله الوسيلة والقيام بشكرها

٢ ـ الألفاظ التراثية:

وشت الباعونية ألفاظها بوقفة على الديار المقدسة، وذلك بعد أن جددتها كماً ونوعاً فألبست ألفاظ الديار المقدسة هالة من النور، بعد أن حملتها عاطفتها وتجربتها، من ذلك قولها[٥]:

أنورُ بدر بدا من جانب العلم ... أم وجه ليلى على الجرعاء من إضم
وأنشد المتفاني في الغرام بكم ... أنور بدر بدا من جانب العلم

---

(١) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٢٥.
(٢) الباعونية، بديعية الفتح المبين، ق٣٥.
(٣) صحيح مسلم: ٤/ ٧٩٢ ـ ١٨٠٢.
(٤) الباعونية، فيض الفضل، ق٦١.
(٥) الباعونية، نفائس الغرر، ق١٥.

طغى هنا حرف الميم على باقي الحروف فبلغت ثمان وثلاثين وحدة صوتية، ومن سمات الميم أنه شفوي خيشومي، يقترن بالشم واللثم[1] أما الميم المكسورة نحو: «إضم» فتلتقي مع صورة الألفاظ المرئية وما في النفس من حب متدفق نحو: «أنشد المتغاني في الغرام».

٣ ـ الألفاظ الصوفية:

اتسمت ألفاظ الشعراء المتصوفة بتعبير صوفي مرموز، يشي بمعان نفسية ووجدانية، وتتجسد هذه الألفاظ عند أغلب المتصوفة من ذلك قول صفي الدين الحلي[2]:

وأطيبُ أوقاتي منَ الدهرِ خلوةٌ يقرّ بها قَلبي ويصفو بها ذِهني
وتأخُذُني من سورةِ الفكرِ نشوةٌ فأخرجُ من فنٍّ وأدخلُ في فنِّ

نستطيع أن نستخرج من أبيات قليلة عند الصوفي عدة مصطلحات كالخلوة والصفاء، النشوة، فالخلوة تبدأ بحرف الخاء وهو حرف حلقي، من حروف الاستعلاء، وكأن الإنسان يستعلي عن هذه الحياة بالخلوة مع الله، فالخلوة عند المتصوفة هي: «ترك اختلاط الناس وإن كان بينهم، وقيل: الخلوة الأنس بالذكر، والاشتغال بالفكر، وقيل: هي الخلوة عن جميع الأذكار، إلا عن ذكر الله»[3].

أما الصفاء فيبدأ بحرف الصاد الصفيري، وهو من أحرف الاستعلاء أيضاً، وكأنه يشير إلى تنقية النفس، ويقول سيدنا علي كرم الله وجهه: «الفكرة مرآة صافية»[4].

والصفاء عند الصوفية هو: «ما خلص من ممازجة الطبع، ورؤية الفعل من الحقائق في الحين. وقال ابن عطاء: لا تغتروا بصفاء العبودية فإن فيها نسيان

---

(١) روز غريب، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، ص ١٣٣.
(٢) ديوان صفي الدين الحلي، ص ٥٥٣.
(٣) الحفني د. عبد المنعم، معجم مصطلحات الصوفية، ص ٩٢.
(٤) الزمخشري، نهج البلاغة، ص ٤٦٩.

الربوبية، لأنها ممازجة بالطبع ورؤية الفعل»[1].

وقد تردد في أشعار الباعونية مصطلح الفناء بقولها في موشح[2]:

وأفْنَانِي فَأبْقَانِي بالعرفانِ والتَّدانِي
كَمْ في ذِكْرِ الرَّاحِ من أحوال قد أفنتنِي وأبقانِي

والفناء في المصطلح الصوفي هو: «أن يفنى عن الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التميز فناء عن الأشياء كلها شغلاً بما فني به. والحق يتولى تصريفه فيصرفه في وظائفه، فيكون محظوظاً فيما لله عليه مأخوذاً عما له وعن جميع المخالفات، فلا يكون له إليها سبيل وهو العصمة. والبقاء الذي يعقبه هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله»[3].

وقد استخدم ابن عربي هذا الرمز من قبل في قوله[4]:

فنيتُ باللهِ عَمّا تَراهُ العينُ من كونِهِ
في موقفِ الجَاه وَصِحْتُ أينَ الأينُ في بينهِ
فقالَ ياساهِ ما عاينـ ـتَ قطّ عين بعينهِ

وهكذا فقد فني ابن عربي عن كل ما حوله، فهو لا يرى سوى الله إنه فناء بقاء يذكرني بفناء الششتري في قوله[5]:

إن مَوتِيَ حياتِي وَفنَائِيَ بقَا
وبِمحوِ صفَاتِي طَابَ لِيَ المُلتقَى

والمتتبع لديوان عائشة الباعونية يجد أنها استخدمت في أشعارها الألفاظ الصوفية، وأقصد بالألفاظ الصوفية الألفاظ التي جرت على ألسنة الصوفية من باب التواطؤ، وهم يستعملون هذه الألفاظ ويفهمون المقصود منها، وقد بنوا

(١) الحفني د. عبد المنعم، معجم مصطلحات الصوفية، ص ٩٢.
(٢) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق١٦٣.
(٣) أبو خزام، د. أنور فؤاد، معجم المصطلحات الصوفية، ص ١٣٧.
(٤) ديوان ابن عربي، ص ١٣.
(٥) ديوان الششتري، ص ١٠١.

بها مواجيد وأذواق، وأحوال ومقامات، ومنازلات وعلوماً مستنبطة من القرآن والحديث.

مع عائشة الباعونية أمام معجم خاص يعنى بانتقاء الألفاظ ذات الدلالات الصوفية المعبرة والرامزة إلى الأعلى، وقد أشار نيكلسون إلى رمز الكلمة عند المتصوفة، فقال: «وترتبط هذه الفكرة بفكرة الكلمة (logos)، والكلمة هي الأصل الإلهي للأشياء جميعاً، وتتشخص في النبي محمد ﷺ، ومن هنا دعي محمد نور الله، وقيل عنه: إنه وجد قبل خلق الكون، ومن مناقبه أنه أصل الحياة، ما كان منها وما يكون، وهو الإنسان الكامل الذي تجلت فيه الصفات البانية، وتنسب إليه الرواية الصوفية هذا الأمر: من رآني فقد رأى الله»[1].

ولذلك تخللت أشعار الباعونية مصطلحات صوفية كمصطلحي (المحو والإثبات) اللذين استخدمتهما الشاعرة في قولها[2]:

وصحَّ في المَحْو إثباتِي وأثْبَتَ ... لي مَحْوي بِحُبي منه كلما أدمِ
فليسَ ينكرُ حَالِي في منَازَلَتِي ... إلا جهولٌ عن الرّشدِ المبينِ عَمي

فالمحو في المصطلح الصوفي هو أن «يمحوهم عن رؤية نفوسهم في حركاتهم، وأن يبقيهم عند نفسه ينظرهم إلى قيام الله لهم في أفعالهم وحركاتهم»[3].

ومن المصطلحات الصوفية التي وظفتها عائشة الباعونية (الخلوة والجلوة) في قولها[4]:

وكشفٌ بلا سترٍ ووِدٌّ بِلا بَلا ... وجمعٌ بلا فرقٍ وخلوةُ جَلوة

هذه الدلالات اللفظية ترمز إلى معان يعلمها أهل التصوف، فالمتصوف يصل في طريقه إلى الله إلى الخلوة به، ثم ينتقل في مرحلة أخرى إلى الناس في جلوة ليحدثهم، ولكنه يبقى معلقاً مع الله.

---

(١) نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ص ٨٢.
(٢) الباعونية، عائشة، نفائس الغرر، ق ٨.
(٣) جودة نصر، د. عاطف، شعر عمر بن الفارض، ص ١٧٥ - ١٧٧.
(٤) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٥٢.

ومن المصطلحات الصوفية (البسط والقبض) «فالبسط في مقام القلب بمثابة الرجاء في مقام النفس، وهو وارد تقتضيه إشارة إلى قبول ولطف ورحمة وأنس، ويقابله القبض كالخوف في مقابله الرجاء في مقام النفس»[1].

فالقبض خاطر يرد على القلب فيوجب الخوف، والبسط خاطر يوجب الرجاء والأمل، وينشآن نتيجة حالة وجدانية خاصة، ويتعاقبان ويتداولان في وجدان الصوفي.

ومما قالته عائشة الباعونية في القبض والبسط، أو لنقل في الخوف والرجاء قولها[2]:

وَيـــدومُ بَسْطِـــي وانْبِسَـــاطِـــي معـــكَ بـــالعيـــشِ الخَصيـــبِ
وهـــذا الأنـــسُ هـــذا البَسْـــطُ هـــذا صفـــاءٌ مـــا بـــهِ كَـــدرٌ يشـــوبُ
وهـــذا القَبـــضُ هـــذا الفَضـــلُ هـــذا هـــو المنـــنُ الجليلـــةُ والـــوهـــوبُ

وقولها[3]:

وبســطٌ بــلا قبــض وراحٌ بــلا عَنــا ولطــفٌ بــلا خــوف ومــنٌّ بمنّــةِ

ومن المصطلحات أيضاً التي استخدمتها عائشة في ألفاظها الصوفية (الجلال والجمال) فالجلال يرجع منه وإليه، وارتبط به الهيبة، والجمال ارتبط به الأنس، فإذا تجلى جلال الجمال أنسنا ولولا ذلك لهلكنا، فالجلال يقبض والجمال يبسط من ذلك قولها[4]:

حبيبـــي حبيبـــي بعـــزِّ الجَـــلالِ ولطـــفِ الجمـــالِ وعَليـــائكـــمْ
أغيثـــوا بِكُـــمْ وارتضـــونِـــي لكُـــمْ وَردوا جَميلِـــي بِسقيـــاكُـــمْ

وتتجلى جملة من المصطلحات الصوفية في الخمريات وفي مطلع حديثها عن المدامة كقولها[5]:

---

(١) الحفني، د. عبد المنعم، معجم المصطلحات الصوفية، ص ٣٤.
(٢) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق ٥٢.
(٣) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق١٤٢.
(٤) المصدر نفسه، ق٤٥.
(٥) المصدر نفسه، ق٦٥.

هي الشمسُ، إلا ما تَغيبُ وإنّها لتطرح أهلَ الشّربِ في تيه غيبتي
لها البدرُ كأسٌ والنّجومُ خِباؤها وندمانُها الأحبابُ أهلُ المحبّةِ
وكأسٌ بلا كيفٍ، وخمرٌ مروّق بِدن تدانٍ حلّ حانَ المحبةِ
يدورُ بلطفٍ يمتلي بعنايةٍ يفوحُ بروحٍ فيها روحُ راحةِ

«فالكأس هذه هي المحبة الإلهية، المكنى عنها بالخمر وهو الإنسان الكامل ويعنون به النبي ﷺ لأنه محل هذه المحبة، والبدر هو الإنسان الكامل الممتلئ إشراقاً من ربه ونوراً، كما ينعكس ضوء الشمس على البدر في تمامه وكماله، والمدامة في تحولها الرمزية تبدو شمساً طالعة من حقيقة نورانية، وليس الهلال والنجوم إلا تحولين من التحولات الرمزية للبدر المذكور»[1].

ومن رموز الباعونية الصوفية رمز الوصل والحجب والجذب وفي قولها[2]:

عليكَ من الصّلواتِ أفضلُها أزكى صلاة بها للقلبِ وصلاتُ
والرُّسلُ والآلُ والأصحابُ قاطبةً ومن لهم من قبيل الحقِّ جذباتُ
ما زمجرَ الرّعدُ بالتّسبيحِ لله من قطراتِ الودقِ سجداتُ
وما تقشَّعَ غيمُ الحُجبِ عن بصرٍ وأوضحَ الجمعَ في المعنى بياناتُ

تستوقفنا هنا المصطلحات الآتية: الأول الوصل والثاني الجذب والثالث الحجب وإذا عدنا إلى المعجم الصوفي نجد أن معنى الوصل «هو العود بعد ذهاب، والعروج بعد نزول. وهو عالم العناصر المتضادة فمنا من أقام في غاية الحضيض حتى هبط أسفل السافلين، ومنا من رجع وعاد إلى مقام الجمع بالسلوك إلى الله وفي الله، بالاتصاف بصفاته، والفناء في ذاته حتى حصل على الوصل الحقيقي في الأبد، كما كان في الأزل»[3].

أما الحجب: «فهو كل ما يستر مطلوبك عن عينك، وهو عند أهل الحق: انطباع الصور الكونية في القلب المانعة لقبول تجلي الحق»[4].

---

(١) ابن عربي، رسائل ابن عربي، ص ٢ - ١٧.
(٢) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق ١٥٠.
(٣) أبو خزام، د. أنور فؤاد، معجم المصطلحات الصوفية، ص ١٨٦.
(٤) أبو خزام، د. أنور فؤاد، معجم المصطلحات الصوفية، ص ٧٣.

وفي الجذب سر يشي به المتصوفة بقولهم هو: «جذب الأرواح، وسمو القلوب، ومشاهدة الأسرار، والمناجاة، والمخاطبة، وما يشاكل ذلك، فإن أكثر ذلك عبارات تعبر عن التوفيق والعناية، وما يبدو على القلوب من أنوار الهداية.. قال الخراز: إن الله تعالى جذب أرواح أوليائه إليه ولذذها بذكره والوصول إلى قربه»[1].

٢ ـ الألفاظ الجزلة:

إن المتأمل لديوان عائشة الباعونية يجد أنها امتلكت الألفاظ والتراكيب اللغوية الثرية ومن مصادر شتى، كما امتلكت القدرة على تصريفها والتنسيق فيما بينها.

ولعل لإتقانها للقرآن الكريم منذ الصغر أثره في جعل ألفاظها جزلة قوية ممتشجة برهام الصوفية محلقة في عالمها الرحب، وخصوصاً في بديعيتها التي بدأتها بقولها[2]:

في حسنِ مطلعِ أقمارٍ بِذي سَلمِ ... أصبحتُ في زمرةِ العُشاقِ كالعلمِ
أقولُ والدّمعُ جارٍ جارحٌ مقلي ... والجارُ جارَ بعذلٍ فيهِ مُتَّهِمي
يا للهَوى في الهَوى روحٌ سَمحتُ بها ... ولم أجدْ روحَ بُشرى مِنهم بهمِ

نحن هنا مع مقدمة طللية، ولكن بتوظيف آخر، إنها وقفة على الديار المقدسة، لخير المرسلين، وانتقت ألفاظها بعناية فائقة، ففي قولها: (زمرة) فالزاي حرف صفيري وظفته بطريقة ذكية تدل على مجموعة المحبين للرسول، وتردد السين في (حسن، سلم، سمحت) وهو حرف صفيري أيضاً، وظف توظيفاً إيجابياً أشار إلى تلك السماحة في حب الرسول الكريم ﷺ، ففي مدائحها نجد القوة والجزالة، والسلامة والانسجام.

فألفاظ الشاعرة مرتبطة بمقدرة لغوية، وثقافة عامة، حيث تلقت العلم على أيدي أساتذة ثقاة، فكانت تتلاعب باللفظ كل حسب ما يناسب القصيدة،

---

(١) المصدر نفسه، ص ٧٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦٧.

فأحياناً تميل إلى جزالة اللفظ وفخامة التعبير، وتارة تميل إلى التعبير عنه بسهولة ووضوح، من ذلك شعرها في الخمر الصوفية[1]:

إليها بِها فِيها عَليها عَلى المَدَى حنِيني ووَجْدِي وافتضاحِي ولهفَتي
قَبيحٌ عليّ الصَّبر عَنها وبَيننا عهودٌ نُراعِيها بِحفظِ المَودةِ
ولهتُ بها حَتّى رَمُوني بجنةٍ وما بِي جنونٌ، بي غرامٌ بجنَّتِي

ففي قولها: «حنيني، وجدي، افتضاحي، لهفتي، رموني، ولهت» ألفاظ سهلة تناسب حالة الشاعرة حيث ولهت بالخمر فرميت بالجنون، ومع ذلك لم تتركها على رغم ما تسببه لها من افتضاح أمر.

٣ ـ الألفاظ المستحدثة والعامية:

وهي الألفاظ «المحدثة أو المولدة أو المقتبسة أو المستخدمة في غير ما وضعت أصلاً، أو العامية مما كثر استخدامه»[2].

برزت قدرة عائشة على توظيف ألفاظ غريبة، من ذلك توظيف لفظة درابخ التي هي بمعنى مطاوعة الحمامة ذكرها[3]:

لمثلي يعذل وأنا الذي لي مقام في فنا الفنوات شامخ
ولولا الحلم ما أغمدت سيفي إذاً حتى أخليهم درابخ

من هذه الألفاظ المستحدثة قولها في معرض وصف الخمرة لفظة (ضحوة) في قولها[4]:

فقلتُ: سَناها لو تَبدّى بليلةٍ دجوجيةٍ أضحتْ كأعظمِ ضحوةِ

ومن ذلك أيضاً لفظة (الشطح) في موشحها[5]:

جادَ لي المحبوبُ منها بالأخصِّ المتلالي
وسَقانيها إلى أن فزتُ بالرّي والكَمَالِ

---

(١) الباعونية عائشة، فيض الفضل، ق٢٠٠.
(٢) موسى باشا، د. عمر، قطب العصر عمر اليافي، ص ٥١٥.
(٣) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٢٥١.
(٤) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٢٥١.
(٥) المصدر نفسه، ق١٤٦.

مـــرتـــوي مَـــا زلـــتُ منـــهُ فـــي ريـــاضِ البَســـطِ أســـرحْ
وبـــأشجـــانِ التَـــدانِـــي فـــي غضـــونِ الـــوَصـــلِ أمـــدحْ
وبِتـــوحيـــدِي أطـــربُ وبمحـــو الغيـــرِ أشطـــحْ

«وفي الأصل اللغوي (شطح) بالكسر وتشديد الطاء وهو زجر للعريض من المعز، كما في القاموس وغيره، والمرجح عندنا أنها من المولدات المستحدثة، وهي مأخوذة من الأصل اللغوي شحط بمعنى (أبعد)، ثم تصبح بكثرة الاستخدام (شطح)، من الإبدال والقلب المكاني المعروف في اللغة، وخاصة عند العامة، وذلك لكونها أخف وزناً وأسهل نطقاً على اللسان. وهكذا أصبح للشطح فلسفة سلوكية خاصة بالتصوف والمتصوفة»[1].

ففي شعر عائشة الباعونية تمتزج أحياناً بعض الألفاظ العامية، وذلك لأسباب منها «شيوع اللَّهْجةِ العامية والأزجال في أدب العصر المملوكي»[2].

والمتتبع لموشحاتها والمواليا يجد أنها أكثرت من الألفاظ العامية إضافة إلى الأزجال العامية من ذلك قولها في إحدى الأزجال[3]:

كيـــفَ لا ينعـــمُ فـــؤادِي وحَبيبـــي لـــو نَـــديمِـــي
وهـــوَ مـــنْ وَصْلـــوا وقُـــربـــوا فـــي جنـــانٍ ونعيـــم
وجمـــالـــهُ لـــه مشهـــد بـــدره ليـــس يغيـــبُ
ووفـــاؤوا لـــه ســـرمـــد

هنا نجد بعض الألفاظ العامية مثل قولها: «وصلوا وقربوا»، حيث استبدلت الهاء بالواو على اللهجة العامية.

والمتتبع لديوانها يجد الكثير من الألفاظ العامية، من ذلك قولها[4]:

مسكيـــــنٌ المهجـــــورْ هـــو دائـــمٌ مـــأســـورْ
وقلبـــــهُ مكســـــورْ ووردُهُ مكـــــــــــدورْ

(١) موسى باشا، د. عمر، قطب العصر عمر اليافي، ص ٥١٥.
(٢) ضيف، د. شوقي، الفن ومذاهبه، ص ٥٠٠ ـ ٥٠٨.
(٣) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق ٢٦٣ ـ ٢٦٤.
(٤) المصدر نفسه، ق ١٩٦ ـ ١٩٩.

ودَمعـــــو سَـــــائـــــلْ وعَقلـــــــو مَسلـــــــوبْ
وحَـــــالـــــو حَـــــائـــــلْ وصَبـــــــروا مَنهـــــــوبْ
وأمـــــــروا هـــــايـــــلْ وسقمـــــــو مَسبـــــــوبْ
وِجسْمُـــــــو مَضـــــــرور وجَمـــــــرو مَسعـــــــورْ
وعَيشـــــــه مَحـــــــرورْ ووقتـــــــو ممـــــــرورْ

ففي قولها: «مأسور، مكدور، مضرور، هايل» ألفاظ عامية دارجة، كما أنها أبدلت الهاء بالواو على الطريقة العامية.

ومن الألفاظ العامية قولها في إحدى الموشحات[1]:

دمعِـــي دَامـــي علـــى الـــدَّوامْ عَقلـــي والـــهٌ مـــن الهُيـــامْ
وَجْـــدِي شـــايـــعْ بيـــن الأنـــامْ مـــا بـــي داءٌ ســـوى الغَـــرام
وإن لامَ جَـــاهـــل أقـــل ســـلامْ لـــمَ لا والله هـــو المـــرادْ

هنا نجد لفظة (شايع) فاستبدلت الهمزة بالياء، ولعل ذلك ليسهل ترديد هذا الموشح.

كما أن لها ألفاظاً عامية ومقزمة تابعة للغة أكلوني البراغيث حيث يتزاحم فاعلان على فعل واحد، ويسميها ابن عقيل (لغة يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل)[2] كقولها[3]:

يَقُـولـونَ عُـذَّالـي تَملـى بِغيـرهـم ولو ملتُ للإصغاءِ فارقتُ مِلَّتي

وقولها[4]:

لا أُبالِي إنْ طَالوا عَذْلي فيك المُلام أنتَ حَسْبِي ليسَ إلا أنتَ يا هو والسَّلامْ

سمات ألفاظها:

١ ـ من أهم سمات ألفاظها تناغم المتضادات وخاصة في المصطلحات

---

(١) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٤٠، ـ٤١.
(٢) ابن عقيل، عبد الله، شرح ابن عقيل: ١/ ٤٧٣.
(٣) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق١٤٧.
(٤) المصدر نفسه، ق٢٦٧.

الصوفية، أي كثرة التقابلات التضادية نحو (السكر والصحو) و(المحو والإثبات) و(الجلوة والخلوة) و(البسط والقبض) و(الجلال والجمال) من ذلك قولها[1]:

وصحَّ في المَحو إثباتِي وأثبتَ لي ... مَحــوي بحبِّــيَ منــه كلمــا أدم
فليسَ ينكرُ حَالي في مُنازلتِي ... إلا جَهــول عــن الــرَّشــدِ عمــي

٢ ـ وما يلاحظ على ألفاظها اختلاف حركات الإعراب والتي سماها الثعالبي (عسف اللغة والإعراب)[2].

وهي الأخطاء النحوية في ألفاظها وتراكيبها، وتبدو في ديوانها فيض الفضل بخاصة من ذلك قولها[3]:

فدونك منْهاجِي فسرْ فيه (مقبلٌ) ... بفعلِي ومن هَاجَ فلا تخشَ واثبتِ

وأحياناً تنصب أفعال المضارعة بدون نواصب وتارة لا تنصب بالنواصب، وتارة ينجزم الفعل المضارع بأداة نصب، وكل ذلك من مراعاتها للضرورة الشعرية نحو قولها[4]:

ومــلائــكُ الــرَّحمــنِ كــانــتْ جنــده ... فــي يــومِ بــدرٍ (يضــربــوا) بــالهــامِ
ونَشــدتُهُــم أن (يَحملــون) رِســالِتي ... ويبلغــــونَ تَحيتـــي وسَـــلامِـــي

وقولها[5]:

فلن (يضيقْ) عَفوه عن ذنبِ راجيةٍ ... فيهِ و مَدْمَعها من خَوفِها جَارِي

وتارة تجزم المضارع بحرف لو والذي من شروطه إذا ولي فعلاً مضارعاً يقلب معناه إلى الماضي، أما الباعونية فخرجت عن هذه القاعدة، في قولها[6]:

لــو تــذقْ طعــمَ الهــوى يــا عَــاذلــي ... كنــتَ تعــذلُ كــلَّ أربــابِ الهــوى

---

(١) الباعونية، عائشة، نفائس الغرر، ق٨.
(٢) الثعالبي، عبد المالك، يتيمة الدهر: ٢/ ١٩٣.
(٣) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق١٤٣.
(٤) المصدر نفسه، ق٢٣.
(٥) المصدر نفسه، ق٣٢.
(٦) المصدر نفسه، ق٥٠.

وتارة ترفع المفعول وتنصب الفاعل كما في هذه الشواهد[١]:

وإن طـــالَ الفـــراقُ إلهْـــي نَـــرتجـــي (جمـــعٌ) يـــدومُ

وفي قولها[٢]:

صـــلِّ وسلِّـــمْ عليـــه دائمـــاً أبـــداً ما حنَّ (ذا) غربةٍ يوماً إلى وطنِ

وحيناً ترفع اسم إن الذي بعد الظرف، في قولها[٣]:

مـــع أنَّ لـــي شـــوقٌ إليـــك بحيـــرةٍ وتـــولـــهٍ وتـــدلـــهٍ وهِيـــامـــي

وتارة تصرف الممنوع من الصرف نحو قولها[٤]:

فـــلاتقطـــعْ عنِّـــي (عَـــوائـــداً) تَـــواتـــرهـــا مـــازالَ يـــردفُ بـــالبِـــرِّ

وتارة تنصب الفعل المضارع لـ(عسى) بأن المضمرة، وهذا لم نعهده فصيحاً، كما في قولها[٥]:

عَسى منزلٌ في قدسٍ عندَ جنابِكُم عَســـى زورةً تُجنـــى ولـــو بمنـــامِ

عَسى تُشهدوني ذَاتكم وصِفاتكم عسى (تَبروا) كَلْمي بلطفِ الكلامِ

٣ ـ ومن سمات بعض ألفاظ الباعونية التصغير وبكثرة، وهو كما حدده ابن سنان (يعبر عن شيء لطيف أو خفيف)[٦].

من ذلك قولها[٧]:

سعـــدُ إنْ جئـــتَ ثنيـــاتِ اللـــوى حـــيّ عنّـــي الحـــيّ مـــن آل لُـــؤي

فـــي هَـــوى أقمـــار تـــمٍّ نَصبـــوا حُسنهـــم أشـــراك صيـــدٍ للفُتـــي

كما صغرت كلمة أهل في قولها[٨]:

---

(١) المصدر نفسه، ق٦٧.

(٢) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ق٢٦.

(٤) المصدر نفسه، ق٤٨.

(٥) المصدر نفسه، ق٤٩.

(٦) نقلاً عن نعمة الغراوي النقد عند العرب، ص ٢٨١.

(٧) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق١ـ٦.

(٨) المصدر نفسه، ق٢٧٦.

ونُـــدمـــانُ الصّفـــا حضـــرتْ فَهيـــــا يـــــا أُهيـــــل الله

كما صغرت الهوى والمحيا والفناء والغطاء واللما.

وصغرت صيغة التعجب ما أحلى ومن الشائع أنه لا يجوز تصغير الفعل، فشذ عندها تصغير ما أحيلاه في قولها[1]:

حـــيّ بـــالـــوصـــلِ مـــا أطيبـــوا وأُحيلـــــى مشيـــــربـــــوا

٤ ـ ومن سمات ألفاظها الحذف فتحذف حرفاً أو حرفين من بناء الكلمة من ذلك قولها[2]:

كيـفَ (الثّنـا) والعقـلُ منّـي قـاصـرٌ ولكـلّ منّـي يـا حبيـبُ مقصـر

بِجـــلالِ ذاتـــكَ بـــالتفـــرد اجعـلْ نصيبـي منـك ربـي وافـرا

وقد أشار (د.عبد الواحد وافي) إلى هذا النوع من الحذف، فقال في معرض حديثه عن حذف بعض الأحرف:

«ووقوع الصوت الساكن في آخر الكلمة يجعله كذلك عرضة للتحول أو السقوط. فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفين. فقد انقرضت هذه الأصوات في معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية»[3].

وأحياناً تحذف الهمزة لاستقامة الوزن كقولها[4]:

وأدم مـــن الإمـــداد مـــن مـــدد لـــه ليصيـــر ســـري فـــي فضـــاه طـــائـــرا

وقولها[5]:

أجـــد التـــذلـــل فـــي هـــواك لـــذاذة والبعـــد قـــربـــاً والشقـــا نعيمـــا

وتارة تحذف الحرف الأخير أو ما قبله[6]:

---

(١) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق ٢٤٨.

(٢) وافي، د. عبد الواحد، علم اللغة، ص ٣٠٣.

(٣) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق ٨ ـ ١٢.

(٤) المصدر نفسه، ق١٢.

(٥) المصدر نفسه، ق٤٧.

(٦) الباعونية، عائشة، مجموع في كلام السيدة عائشة الباعونية في التصوف ق٨.

فـاذكـره ذكـراً بـلا حـظ ولا هـوى واخلص ولازم خضوعاً في ميادينه
والأصل ميادينه.

ثانياً: دلالـة التراكيـب:

عند البحث في التراكيب نجد اعتمادها ـ كما اعتمدت الألفاظ من قبل ـ على السهولة والرقة والانسجام، «وهذا المذهب الفني يعتمد على ثلاثة مناهج:

أولها: خلوص اللفظ من التكلف والتعقيد والتعسف في السبك كما يرى (الخفاجي).

ثانيها: اعتماد الشاعر على الألفاظ السهلة، المعتمدة على الطبع السليم والدالة على رقة الحاشية وسلامة الروية، كما يرى (التيفاشي).

وثالثها: الإيقاع المرقص وهذا الذي اعتمده المتصوفة في باب السهولة بالإضافة إلى العنصرين السابقين كما يرى (ابن حجة)»[1].

أ ـ التراكيب الإضافية:

نلاحظ في أشعار الشواعر الصوفية التركيز على التراكيب الإضافية، كقولها[2]:

جـويـريـةٌ مسكينـةٌ مستجيـرةٌ إلى اللهِ من ذنبٍ به القلبُ جازعُ
بجـاهـكَ يـا خيـرَ البـريّـةِ كُلّهـا فكنْ لي في الدارين، غَوثٌ وشافعُ
عليـكَ صـلاةُ الله ثـمَّ سـلامُـهُ وآلٍ وأصحـابٍ ومـن لـك تـابـعُ
مَدى الدهرِ ما لاحتْ بروقٌ لوامعٌ وجادت بفيضِ القطرِ سحبٌ هوامعُ

نلاحظ هنا التراكيب الإضافية في قولها: «خير البرية، صلاة الله مدى الدهر، فيض القطر» ففي إضافتها البرية إلى خير، تأكيد على عظمته واصطفائه، وفي صلاة الله عليه أشارت إلى تزكية الله له، وفي مدى الدهر أعطت الصلاة عليه الوقت الممتد إلى الأبد.

---

(١) موسى باشا، د. عمر، قطب العصر عمر اليافي، ص ٥١٧.
(٢) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٢٠ـ٢٢.

ب ـ التراكيب الندائية:

للتراكيب الندائية أهميتها في التصوف، ونجدها كثيرة في ديوان عائشة الباعونية، ففي إحدى أبياتها كررت النداء ثلاث مرات وكلها في إطار مناجاة الرسول ﷺ، في قولها[1]:

فيا سيّدَ الكونين يا خيرةَ الورى ... ويا خيرَ مَنْ تُرجى إليه المطامعُ
بـــالخمـــرِ النَّفيـــسِ ... المَـــاحِـــي لبـــؤسِـــي
ووهـــم التلبيـــسِ ... بِكَشـــفِ التعـــريـــفِ
بـــالحـــقِّ القـــدوسِ ... لطيـــف التّلطيـــفِ

فنلاحظ هنا هذه الإضافة إلى ياء المتكلم في قولها: «نديمي، أنيسي شموسي، لبؤسي» وهذا الإسناد كثير في شعرها، من ذلك قولها[2]:

يَـــا إلٰهـــي يَـــا رجَـــائـــي ... يـــا حبيـــبَ قلبِـــي
زادَ دَائـــي يـــا دوائـــي ... يـــا جميـــع طبّـــي

فقد أسندت إلى ياء المتكلم في قولها: «إلهي، رجائي، قلبي»، ولها أبيات كررت فيها الإسناد إلى القلب، لترمز بها إلى الحب الكبير، من ذلك قولها أيضا[3]:

حلُّوا بقَلبي، فيا قلبي تهنَّ بهم ... وافرحْ ولا تلتفتْ عنهم لغيرهمِ
قد طال شوقي وقَلبي منزلٌ لهم ... إلى الطّلولِ الّتي تَسمو باسمهمِ

نلاحظ هنا قولها: «بقلبي، يا قلبي، وقلبي، شوقي» فكررت الإسناد إلى القلب ثلاث مرات.

وهكذا نلاحظ أن التراكيب تتراوح بين تراكيب، بما يفيد التخصيص والتعميم، كلٌّ بما يخدم المعنى، وينسجم مع الرموز الصوفية، وتضرعاته الإلٰهية.

---

(١) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٢٦١.
(٢) المصدر نفسه، ق٩١.
(٣) المصدر نفسه، ق١٢٥.

ظواهـــر التكـــرار:

نجد هذه الظاهرة بوضوح عند ابن عربي في ديوانه الشعري، فقد ترددت في إحدى قصائده لفظة (الله) اثنتين وثمانين مرة، وكأن الشاعر الصوفي يترنم بذلك موحياً بحبه الآسر له، ومشيراً إلى عظمته، وهذا التكرار يرمز إلى شدة التعلق بالذات الإلهية، فهو يردد ذكره لله تعالى باستمرار معلناً أنه الأول في حياته، وذلك في قوله[1]:

إذا جَـاءت الأسمـاءُ يقـدمُهـا الله ... فعظّمه بالذّكرى وقلْ قلْ هو اللهُ
أتتنِي كراماتٌ فقلتُ من اسمه الـ ... ـكريـمُ أتـانـي فـي وجـودِي بهـا اللهُ
إذا عَظمـونِـي بـالعَظيـمِ رأيتُهـم ... أخـلاءَ ودٍّ اصطفـاهُـم لـه الله

وهذا ما نجده أيضاً عند البوصيري في قصيدته المحمدية حيث كرر لفظ ((محمد)) اثنتين وثلاثين مرة، فقد أورده في صدر كل بيت وعجزه، ونحن نعرف مقدار حب البوصيري للرسول ﷺ فقد كتب بردته في مدحه وبيان فضائله، وعندما يكرر هنا ذكره نجد دلالة إيحائية، بهذه المساحة التي يشغلها النبي بقلبه وروحه، وذلك بقوله[2]:

مُحمَّـدٌ أشـرفُ الأعـرابِ والعَجَـمِ ... مُحمّـدٌ خيـرُ مـن يَمشـي علـى قـدمِ
مُحمّـدٌ بـاسـطُ المعـروفِ جَـامِعُـه ... محمّـدٌ صـاحـبُ الإحسـانِ والكـرمِ

والمتتبع لديوان عائشة الباعونية يجد هذا التكرار بشكل كبير، وببعد رمزي الدلالة، كررت الشاعرة في مدحها للرسول ﷺ (الصلاة عليك) اثنتين وعشرين مرة، وهذا التكرار يشير بوضوح إلى مدى التعلق به، لذلك فهي دائمة الدعاء له، من ذلك قولها[3]:

الصـلاةُ عليـك يـا شمـسَ الكمـالِ ... الصّـلاةُ عليـكَ يـا بـدرَ الجمـالِ
الصّلاةُ عليكَ من مَولى المَوالي ... دوامـاً مَـا بَـدا نـورُ الهـلالِ
الصّـلاةُ عليـكَ يـا غيـثَ النّـوالِ ... الصّـلاةُ عليـكَ يـا سـامي المَعـالِي

(١) ديوان ابن عربي، ص ١٩٥.
(٢) ديوان البوصيري، ص ٤١٨.
(٣) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق١٧٧.

الصّـلاةُ عليـك يـا حسـن الفعـالِ الصّـلاةُ عليـكَ يـا زاكـي الحـلالِ
الصّلاةُ عليكَ من مَولى المَوالي دواماً مـا أضنـت غـرزُ الـلآلـي
الصّـلاةُ عليـكَ يـا محيـي الليـالـي الصّـلاةُ عليـكَ يـا ذخـرَ المـوالـي
الصّلاةُ عليكَ من مَولى المَوالي دوامـاً مـا همـتْ ديـمُ النّـوالِ

وفي قصيدة أخرى كررت اسم الإشارة أكثر من عشرين مرة، وإذا عرفنا فائدة هذا الاسم ـ الهاء للتنبيه وذا اسم إشارة ـ نعرف سر تكرار الشاعرة لهذا الاسم، وكأني بها تشير إلى عظمة هذا النبي وفضائله، في قولها[1]:

هـذا الحبيـبُ وصفـوةُ الجَبـارِ أزلاً ولا أثـرُ مـن الآثـار
هـذا الّـذي قـرنَ المهيمـنُ اسمَـه مـع اسمِـهِ وجَـلاهُ لـلإظهـارِ

ويكثر أمثال هذا التكرار في ديوان عائشة الباعونية، من ذلك تكرارها مقاطع معينة، مثل[2]:

ألا يَـا رسـولَ اللهِ ألهمـتُ إننـي لكهفـكَ آوي والتّـذلـلُ حِيلتِـي
ألا يـا رسـولَ اللهِ مـا لـي وسيلـةٌ سواكَ إلى رحمنِ روحِي وجملتي

فأخذت تكرر مقطع (ألا يا رسول الله) أكثر من أربعين مرة في قصيدة واحدة، إنه نداء استرحام لهذا النبي المبعوث رحمة للعالمين، تكرره مرات ومرات لتبث مشاعر الحب والتقرب للرسول ﷺ والنداء له، والتوسل به لله تعالى.

ومن التكرار الكلامي عند شاعرتنا قولها[3]:

الـوافـر العظـم بـن الـوافـر العظـمِ ابن الوافر العظمِ بن الوافرِ العظمِ

وقولها[4]:

اللهُ اللهُ خيـرَ الخلـقِ يـا سَنـدِي كـنْ شَـافعـي يَا مـلاذي عنـد غفـارِ

---

(١) المصدر نفسه، ق١٥٥ـ١٥٦.
(٢) المصدر نفسه، ق١٥١.
(٣) الباعونية، عائشة، البديعية، ق١٣٦.
(٤) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق٣١ ـ ٣٣.

فقد كررت كلمة (الوافر) أربع مرات، وكررت كلمة (العظم) أربع مرات، وكلمة (الله) مرتين.

ولها موشح كررت فيه ياء النداء، والضمير المنفصل (هو)، ولفظة (الله) في قولها[1]:

يَـا مَـن أفنَـى فِـي مَعْنَـاه كـم معنـى فـي هَـواه
جُـدْ لـي جُـدْ لـي ومتعنـي وخلـدنـي
بـالعَيـانِ فـي اتصـالـي يا هو يَا هُو يَا الله، يَا هُو يَا هُو يَا الله
يَا هُو يَا هُو يَا الله، يَا هُو يَا هُو يَا الله

نلاحظ هنا أنها كررت ثلاث عشرة مرة لفظة (يا) وثماني مرات (هو)، وخمس مرات (الله) فالتكرار يتعلق أحياناً بالشفع والوتر، ورمزهما، وكأني بالشاعرة وقد تأثرت بحلقات الذكر؛ التي كان يقيمها المتصوفة، فيكثرون من تلك الألفاظ بصورة عددية معينة.

أما من تكراراتها الحرفية، والتي تمنح نغماً داخلياً للأبيات قولها[2]:

تَـدعـي حبَّـه وتَشكـو بَـلاه إن هـذا وحقِّـهِ لَعجيـبُ
إنّمـا الصّـدق فـي المحبّـةِ رويـا كلمـا يفعـلُ الحبيـبُ حبيـبُ

كررت حرف الباء ثماني مرات وهكذا فإن ظاهرة التكرار موجودة بكثرة في أشعار عائشة الباعونية، وهذا يفيد في تأكيد الرمز المشار إليه، وأحياناً يكون عدد مرات التكرار مقروناً بدلالة معينة، فعدد سبعة مثلاً مقروناً بالسبع المثاني في القرآن الكريم، ولشرف هذه السورة نجد أن التكرار أحياناً يكون مقروناً بالعدد سبعة، وأخيراً فإن هذه الظاهرة التكرارية موجودة لدى المتصوفة بعامة وخصوصاً عند ابن عربي والبوصيري.

* * *

(١) المصدر نفسه، ق٢٠٢ ـ ٢٠٥.
(٢) الباعونية، عائشة، فيض الفضل، ق١٥٥.